«الكلمة في الفن» معرض واسع عن فن العالم العربي:

# اعمال عن الحرف المقدس والغضب والهوية ورسوم تبحث في الكلمة عن فضاءات لانهائية

ابراهيم درويش*

■ من الكلمة الى اللوحة او «الكلمة في الفن» هو عنوان تظاهرة فنية كبيرة افتتحت في قاعة المتحف البريطاني ـ لندن، قبل اسبوع، وهي احتفال واحتفاء بفن الشرق الاوسط، بالكلمة المقدسة في فضاء اللون، بالحرف المتكرر على ايقاع الشعر، والشارع، باليد البارعة التي تجيد تشكيل الخط العربي.

اربع وثمانون فنانا عربيا ومسلما بعضهم يعيش في بلاده، منهم من رحل عن الدنيا، ومنهم من يعيش مرتحلا وبين هويتين، مع اخرين يعيدون اكتشاف تجليات الحرف العربي في لحظة الهام وشوق، وفي لحظات غضب واحباط، وفي تنوع بين الشك واليقين.

مهرجان الكلمة واللون يقدس المقدس، القرآن، ويعمل على توسيع فضاء الخيال الشعري بادخاله واحة اللون، اشعار وامثال وصور ورجال هم ما يمثلهم هذا المعرض الكبير الذي يتوقع ان يتحول الى تظاهرة فنية كبيرة بما فيه من برامج ونشاطات واعمال على هامشه.

وهو معرض يدخل زائره في قلب ثقافة العالم العربي والاسلامي بدون ان يكون هناك اي داع لفهم الحرب العربي، فتجربة استخدام الحرف العربي المقدس جعلت منه رمزا عن ثقافة وحياة وحضارة، فالزائر وعبر طبقات من اللون او تكرار الحرف عبر اشكال مختلفة يعيد ويكتشف ويتعرف على القصة الاخرى من العالم العربي كما تقول فينشيا بورتر، قيمة القسم الاسلامي في المتحف البريطاني والتي قامت بتنظيم المعرض وتشكيل اتجاهاته، القصة الاخرى للحرف العربي الذي لم يعد امتلاكا للعربي الذي يجيد كتابة الحرف بل فنانون مسلمون عاشوا ثقافة مختلفة من اليابان والصين، فالحرف العربي المكتوب بتنوعات صينية من اجمل الحروف، فيه دفقة ابداعية ولحظة متدفقة وجمالية مختلفة عن جماليات الخط الكوفي والثلث وغيره.

والقصة الاخرى وهي الاهم عن العالم العربي انه عالم جميل، عالم لا يمكن حصره بتلك الصورة النمطية، عن الارهاب، والقاعدة والانتحاريون.. والدمار، انه عالم يموج بالكلمة، ويرحل في فضاءات اللون، يكتب تاريخه فنانون يعيشون على الحافة او الجسر، تقنياتهم والوانهم غربية ولغتهم وهوسهم وشوقهم عربي. تقول بورتر التي تحدثت اليها طويلا، ونحن محاطين في كرنفالات الشوق العربي، انها فكرت طويلا في الطريقة التي يمكن من خلالها عرض استخدام الحرف العربي وتجادله مع اللون في اعمال الفنانين العرب، فهي لم ترد حصر الاعمال، وكلها اعمال من مقتنيات المتحف البريطاني، في بلد وموطن الفنان، لان هذا التوزيع يؤدي للتكرار، ويجعل من تمثيل بلد متفوقا على بلد آخر، مما سيجلب النقد على المنظمين، وبعد تفكير، وجدت ان افضل طريقة لعرض هذه الاعمال من خلال ثيمات اربع، موضوع الحرف في المقدس، والحرف في الشعر والحرف في التشكيل، والحرف في التاريخ والهوية والسياسة. ومن هنا اتخذ ترتيب اللوحات بعدا عضويا ونسبيا واضحا. يواجه الزائر للمعرض نصب كبير عن «دجلة العظيم» الذي اعده الفنان العراقي ضياء العزاوي على شكل ملوية سامراء المعروفة، وحفر عليه اشعار الشاعر المعروف محمد مهدي الجواهري.

يدخل زائر المعرض اذن، في اربعة عوالم، عالم حرفة الخط التقليدية التي تحتفل بالحرف وتشكيلاته وتركز اساسا على المعنى المقدس للحرف القرآن واسماء الله التي تتراوح من بساطتها في التعبير الى تقديم، عمل نصار منصور (كن)/ كوفي مثلا او عثمان وقيع الله (كهيعص) الى اشكال معقدة كما في اعمال الفنان الياباني المسلم فؤاد كويتشي هوندا الذي يستخدم المؤثرات التركية وتقاليد خط «جلي الثلث» في اعماله وكما في اعمال البريطاني – المصري احمد مصطفى «اسماء الله الحسنى» التي شكلها على شكل مكعب (الكعبة» التي تسبح في بحر من الخطوط. في لوحة الفنان الصيني المسلم حاج نور كونجيانغ «يا رحيم» مكتوبة بحرف عربي صيني حيث كتب تاريخ انتاج اللوحة بالصيني ووقعها كعادة الفنانين المسلمين باسمه العربي واضاف عليها ختمه الاحمر بالصيني. رحلة الحرف المقدس تكشف رغم حرفيتها عن امكانيات النص المقدس واهتمام الفنان العربي او المسلم بالكلمة كمدخل لعالم الثقافة العربية والاسلامية، وكان اهتمام الفنان بالحرف واحدة من الاسباب التي جعلت الحرف العربي من اجمل الحروف في العالم. استمرت تقاليد الحرفية الخطية في العالم العربي حيث بنت على ما عرف بالاحياء المملوكي لفن الخط الاسلامي والذي برز كثيرا في الفترة التركية، لكن الحركة الفنية التقليدية في العالم الاسلامي تعرضت لصدمة جديدة جاءت هذه المرة من الغرب، حيث بدأ فنانون عرب ومسلمون يتعلمون في المدارس الفنية الغربية وينقلون منها اساليبها وتقنياتها، وبدلا من انتاج فن غربي خالص كان الفنانون واعون بهويتهم الثقافية حيث بدأوا بالاستجابة للاحتياجات الجمالية للوحة والقدرات الفنية التي تكمن في الحرف العربي، ومن هنا بدأ الفنان يستخدم الكلمة العربية بتوسع اكثر، وليس فقط النص المقدس بل النبع الشعري والثقافي العربي، ويعرف الفنانون الذين استندوا على الحرف باسم «الحروفية» وتتساءل بورتر في مقدمتها لكتالوج المعرض ان عبرت هذه الظاهرة عن حركة فنية ذات اصول واتجاهات، فنحن امام تنوع في الاساليب التي تستند على التكعيبية مثلا وتدخل الحرف، الكلمة في لوحاتها، هنا تبدو الكلمة في مركز التشكيل اللوني والطبقي للوحة وفي اساس الخلق الفني، والفنان هنا يعيد رسم وكتابة الاشعار العربية والنثر العربي وحكايات العرب في مجدهم الماضي. كانت الفنانة العراقية مديحة عمر (توفيت عام 2004) اول من ادخل الحرف العربي حيث تأثرت بهذا اثناء اقامتها في الولايات المتحدة، وتعرفت على اعمال الاكاديمية ناديا آبوت الباحثة في تاريخ الحرف العربي والتي كانت تعتقد ان كل حرف عندما يبدو كصورة مجردة يعبر عن معنى، كما تأثر الفنان العراقي الشهير شاكر حسن ال سعيد (توفي عام 2005) باعمال الفنان تابياس. ويقدم المعرض هنا لوحات للعراقية سعاد العطار التي اخذت اشعار ليلى بنت لكيز وضمنتها في عملها «الهام قصيدة» التي تبدو فيها الوجوه وهي العلامة الفارقة في فن العطار، الاهتمام بالانسان والوجه. غني العاني ايضا يقدم تشكيلا جميلا لمعلقة زهير بن ابي سلمى، حسن مسعودي يشكل «كر وانت حر» في مركز اللوحة حيث يتركها تسبح في فضاء لا متناهي مكرر للعبارة نفسها كاستلهام للكون والحياة، علي عمر ارميص، ينوع على حروف العربية وتشكيلات لونية اقتباسات من «البيان والتبيين» للجاحظ «شدة»، كمال بلاطة «اول الكلام» وهو كتاب وعمل فني لاشعار ادونيس وثمانية شعراء اخرين، كتبت بالعربية وترجمت للانكليزية، وكذا اعمال ضياء العزاوي لاشعار ادونيس والجزائري محمد بناطير لاشعار محمود درويش «العصافير تموت في الجليل»، وجدان علي ترسم على ورق ياباني «خطغرافيتي» لاشعار شربل داغر، وهناك استلهام للحلاج في اعمال شاكر حسن ال سعيد، او مصطفى جعفر «يا كل كلي» او كمال بلاطة «انا الحق» حيث تبدو الاخيرة كاطار زخرفي على خلفية حمراء، الفنان التونسي المعروف نجاح المهداوي يضمن الحرف العربي اضافة لترجمة نصه الى الفرنسية في استلهامه لقصة من قصص الف ليلة وليلة. والمهداوي ينوع في تشكيله للخط العربي حيث ينتج فنا هجينا، فنا يبدو في النسخة الاخيرة لا ينتمي الى الحرف او الفن، بل هو خط ولا خط، وكما يقول ناقد فرنسي، نجاح المهداوي «يكتب ولا يكتب».

الحرف العربي ليس فقط عن استلهامه بمعنى حضوره في مبنى التشكيل ولكن الفنان ومنذ الاربعينات بدأ يعطي الحرف بعدا نظريا، فهو وان استخدمه من اجل التعبير عن حالة الاحباط والغضب وتضمين معان سياسية معاصرة الا انه بدأ في ملمح آخر يعيد تشكيل الحرف بحيث يخدم المعنى الفني ولا يحدد اتجاهه، شاكر حسن ال سعيد ابتعد عن اللغة العالية وبحث عن لغة اليوم في لوحاته التي استلهمت الشعارات الجدارية «الحسود لا يسود»، عن استخدامه الحرف يقول «افضل استخدام الحرف او الكلمة في اعمالي كما يكتبها اطفال المدرسة، او التلاميذ او اشباه المتعلمين بدلا من كتابتها كما يكتبها الخطاطون او الطباعة»، ويقول في ايضا ان الحرف العربي «يمثل تاريخ الفرد العربي والواقع الاجتماعي الذي خزنه الوعي الفكري للثقافة والمجتمع»، والحرف العربي جذب الكثير من الفنانين العرب حتى الذين يهتمون بالشخوص والتشخيص، والرموز الانسانية، ففاتح المدرس ادخل حفريات وحروف وآيات في اعماله، وتقدم في هذا القسم اعمال كل من رشيد سليم، رافع الناصري، محمود حماد، حسين ماضي، لاسعد المطوي، عبدالقادر الريس.

ان كان هذا المعرض عن تشكيل الحرف على مساحة اللوحة، فهو عن المدى الذي وصل اليه الفنان العربي والمسلم في استجلاء واستكشاف امكانيات هذا النص، انه عن اجيال من الفنانين الذين تعاملوا مع وسائط فنية مختلفة، والكيفية التي حل فيها الحرف/ اللغة/ النص/ المقدس في دوائر متعددة، دوائر لانهائية، تدور الى ما بعد البعد، فالفنان السوري محمود حماد مثلا يأخذ الحرف ويطوعه في دائرة مؤثرات المدرسة التكعيبية، حيث تتحول اللغة الى تجريد فني عال التأثير. في لوحة شاكر سعيد عن جدار بغداد ومثل «الحسود لا يسود» هنا جدار ينقط منه اللون ويتماهي مع الاسمنت بطريقة عبثية، يتركه الفنان ليشكل نفسه بنفسه، تاركا للمشاهد استجلاء اثر الطبيعة والريح واللون على الحرف.

منظموا المعرض، قدموا كل ما يلزم من ترجمات وشروحات، كاتلوجات مجانية واخرى يمكن شراؤها لاعطاء الزائر الفرصة للدخول في عالم الفن العربي، واكتشاف المجالات الحسية والخيالية للفنان العربي، وامكانيات النص العربي، وان كان المشاهد او الزائر غير قادر على ترجمة او فك معاني هذه الرموز الابجدية، والمشاهد بعد تجواله في المعرض يستطيع ان يميز بين حرفية الكتابة، الخط، وبين اشتعال الحرف وتماهيه مع اللون، بين الخط الكوفي المتقن وبين خط الثلث الذي يتجاوز هويته ليدخل هوية اللون.

والمشاهد يصدم بتنوع الابجديات واللهجات التي تجاوزت الزمن العربي، هنا حرف عربي بهوى صيني، وحرف عربي بهوية فارسية، وحرف عربي على خلفية فن تركي، وحرف عربي يتداخل مع الحرف اللاتيني، وحرف عربي بمؤثرات صحراوية افريقية. تنوع يعكس هجرة الحرف العربي وتجاوزه اصله الاصيل في الجزيرة العربية. ويبدو ان استلهام الحرف في العمل الفني كان يحاول في بعض الاتجاهات تطويع الوعي الصوفي وتجربته الاسلامية، لتقديم لغة عالمية، لغة تتجاوز الحدود الفاصلة بين فهم النص والاعتراف به والاعجاب، حيث تبدو الحروف مثل تعويذات، كما اشار كمال بلاطة، الفنان الفلسطيني الذي يتعامل مع الحرف باعتباره «التعويذة» للفن.

في محور، يقدم الطريقة التي تداخل فيها الحرف، مع اللون، الصورة والتاريخ، الازمة، الكارثة والهوية، حيث يقدم لنا توليفة من الصور واللوحات، معظمها ايرانية استلهمت التاريخ القاجاري، والحرب العراقية ـ الايرانية، فيما قام عراقيون باستلهام الغزو الامريكي لبلادهم، وتصوير حرق المكتبة الوطنية، وانتهاك تراث العراق، فيما يعود الفنانون المصريون الممثلون في المعرض، الى الرموز التاريخية ، مثل ام كلثوم، (ماتت عام 1975) كما في اعمال شانت افيدسيان «ام كلثوم وروائعها»، تبدو فيها صورة ام كلثوم موزعة في اكثر من موقف على حروف اغانيها «رباعيات الخيام، ظلموني الناس، نهج البردة، حيرت قلبي، فكروني، الاطلال، الاوله في الغرام...»، او في لوحتي «فاروق الاول/ ملك مصر» ، «جلالة الملك نازلي». صباح نعيم، تقدم لفائف من الجرائد اليومية وتوزعها على فضاء اللوحة، داخل وجوه قاهرية.

ويقوم محمد عبله بتقديم لوحة شعارية، «يكفي موت»، رسوم كاريكاتيرية، تجريد للواحات المصرية، وعناوين صحف «الشعب في ازمة خانقة، الدم ارتفع سعره، حكوماتنا العربية تتفرج ولا..». الحرب الاهلية اللبنانية، والعودة اليها، تعليقا واستحضارا تبدو واضحة في اعمال وليد رعد «الحقيقة ستنكشف بعد وفاة اخر شاهد»، او محمد الرواس «العودة الى بيروت». في عمل السعودي احمد ماطر الزيد «اكس ري» خلفية سوداء مليئة بالشروحات المخربشة والمحفورة طبية الطابع حول صورة اشعة لهيكل عظمي.

ليلى الشوا، الفنانة الفلسطينية المعروفة، تقدم لوحة «ايادي فاطمة» وهي جزء من سلسلة من اللوحات عنونتها «المرأة والسحر»/ الخيال. ولكن عملها الاقوى هو «اطفال الحرب.. اطفال السلام»، وهي لوحة في جزئين تصور اثر الحرب على اطفال غزة، انها عن طفل من حي الشيخ رضوان في مدينة غزة يحمل عصا، وهي تعكس وجهين من معاناة الطفل هذا، انها عن الامل الذي حلم به ابناء القطاع بعد توقيع اتفاق اوسلو، ولكن الشوا تقول «لسوء الحظ لم تتغير حياة ابناء القطاع، فمأساة التشرد متواصلة، والفرق الوحيد بين الجزئين ان الشعارات الجدارية تبدو اكثر اضاءة ووضوحا في الجزء الثاني، لكن المعاناة تبقى»، «اطفال الحرب.. اطفال السلام» هي جزء من اعمال «جدران غزة» عن الشعارات الجدارية التي تكتبها الفصائل الفلسطينية المختلفة كتوقيعات وبيانات سياسية، احيانا ممزوجة بصور الشهداء والقادة السياسيين. في حرب العراق، يقدم ضياء العزاوي لوحة «عهد لبغداد» يمزج فيها بين عدد من الحروف لتشكل اسم دجلة وبغداد. ميسلون فرج على سيراميك، «تاريخ مدمر»، تبدو فيها كلوحة عتيقة مخطوطة تكرر البسملة، ومعها كلمة «لماذا؟».

عن اثر اليورانيوم المنضب على الحياة في العراق يقدم كريم ريسان «حضارة اليورانيوم». في غنى اللون تبدو التجربة الايرانية، واضحة في انجازها، حيث تعكس ما حدث في التجربة العربية بدرجة او باخري، من ناحية استلهام الحرف، وتشير بورتر الى كتابات سايروس زوكا في مجلة «سوخان» وحركة سقا خانة» التي دعت لاستلهام الرموز الشيعية في الفن، ويحضر في اعمال الايرانيين، والمهاجرين منهم الاحتفال بالشعر الفارسي جيلا بيكوك مثلا في «عشرة قصائد من حافظ» التي شكلتها على شكل طاووس، فيما قدم فرهاد موشيري اشعارا لعمر الخيام «العاشق السكران» والتي حفرها على جرة. شيرين نيشات في اهتمامها بالزخرفة اللغوية والحروفية على جسد الانسان تقدم في عين امرأة اشعار لفروغ فروخزاد، فعبر عين مكحلة تدعو الفنانة للتحرر والحرب «لا احد يفكر بالزهور.. لا احد يصدق ان الحديقة ماتت». بارفيز تانافولي، احد مؤسسي حركة «سقاخانة» التي بدأت في ايران في ستينات القرن الماضي، التي ادخلت الرموز الشعبية الشيعية لعالم الفن. واهتم تانافولي بكلمة «هيتش» الفارسية التي تعني «لا شيء»، وهي الكلمة التي يشكلها باكثر من صورة طامحة، وتمثل الكلمة له الهاجس عن الماضي، واللامعنى وعدم الرضى بالحاضر.

كما تقوم مليحة افنان باستخدام الحروف لتقديم اعمال تجريدية تعيد شكل الحرف القديم. في الاعمال التي تتحدث عن الهوية والسياسة، يقدم خسرو حسنزاده لوحة «انا عاشق»، والفنان الذي حارب اثناء الحرب العراقية ـ الايرانية، يعيد تشكيل التقاليد الفارسية في رسم صورة شخصية له محاطة بعدد من التعبيرات والعبارات الفلسفية عن الشروط الانسانية، فيما يقوم محمد عانه تاتاري باعادة تشكيل وجه الامام الحسين، الشهيد وسيد الشهداء، ومغلفة بسجادة صلاة.

مالكي نانينغلي، فيها مؤثرات من فريدا كاهلو «ثلاث اعمام»، و «ام وهموش». في عمل غاضب للفنان الفلسطيني خليل رباح «عمل معجمي» يختار صفحة من الطبعة الامريكية لمعجم اكسفورد للغة الانكليزية حيث يختار حرف P ويغطي كل الكلمات بمسامير باستثناء كلمة Phlistine ومعانيها المختلفة. معرض «الكلمة في الفن»، رحلة في تاريخ وحاضر الفن والفنانين، وتنويع على فكرة المقدس والدنيوي، والمتحف البريطاني يطمح بنقل المعرض الى العالم العربي، وتقول بورتر ان الفكرة كانت بسيطة لعرض مجموعة الاعمال المتوفرة لدى المتحف في معرض جانبي الا ان دخول «دبي هولدينغ» على الخط، ادت الى توسيع الفكرة.

والمعرض يأمل ان يبني على نجاح تعاون المتحف مع ايران لتنظيم معرض «الامبراطورية المنسية». والمعرض الحالي كما تقول ليس ردا على الجدل الذي اثارته الرسوم الكاريكاتيرية الدانماركية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم. ولدى المتحف البريطاني وبورتر، توليفة كبيرة من النشاطات الثقافية والموسيقية، والسينما، وتجارب الفنانين والخطاطين ويستمر المعرض حتى ايلول (سبتمبر) القادم.

* ناقد من اسرة «القدس العربي»

Word Into Art
AArtists of Modern Midle East
The British Museum
Great Russell Street,
London WC1 3DG
Tel: 0207323 8000
or: www.thebritismuseum.ac.uk/middleeastshow

لوحة «اطفال الحرب اطفال السلام» لليلى الشوا

لوحة «عهد لبغداد» لضياء العزاوي

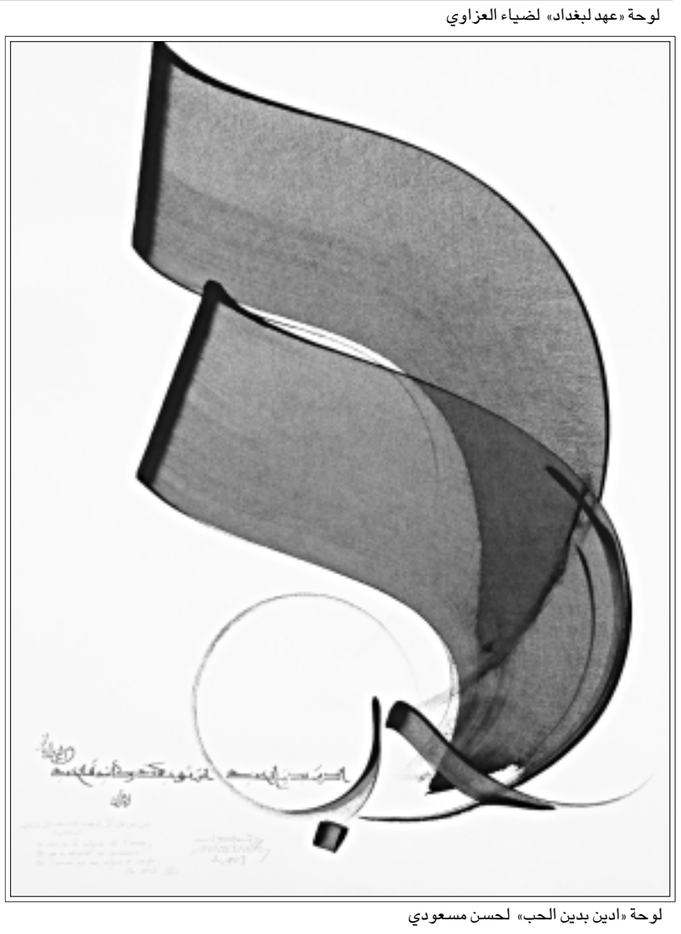

لوحة «ادين بدين الحب» لحسن مسعودي

# تداعيات

## مسجد الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي في فاس

عزيز الحدادي*

■ لم أكن أتوقع أن أجد هذا المسجد (مسجد الأزهر) القدسي الجليل الذي كان الشيخ الأكبر أحد أئمته لمدة خمس سنوات (591ـ597هـ) عبارة عن خراب، عن أنقاض بشعة في منظرها، لكن ذوق مقامها لذيذ يبشر بنهاية العالم وقيام القيامة خاصة وأن رؤية الشيخ لقيامته قد تمت في فاس البرزخ، فاس الذوق والمشاهدة والرؤيا والأحلام والتجليات التي كان مسجد الأزهر فضاءها، لكن كيف يتحول هذا المكان من حيث هو مكانة إلى أكياس من الرمل وأنقاض تنذر بإلحاق روح ابن عربي بالعدم وتعجل بنسيانه من أجل الاعتزاز بموسيقى المسخ الروحي، لماذا يلتزم الجميع الصمت تجاه هذه المعلمة الحضارية؟

والحال أن ابن عربي كان يعشق فاس ويعتبرها ذات مقامات استثنائية تذوقها، ومجموعة رؤى ولقاءات برجال الزهد والطريقة، وبعبارة أخرى ان فاس البرزخ عبارة عن أمكنة مقدسة لها تأثير في القلوب اللطيفة حيث نجده يقول: «من شرط العالم المشاهد، صاحب المقامات الغيبية والمشاهدات يعلم أن للأمكنة في القلوب اللطيفة تأثيرا. ولو وجد القلب في أي موضع كان الوجود الأعم... فكما تتفاضل المنازل الروحانية، كذلك تتفاضل المنازل الجسمانية».

فقيمة المكان بالنسبة للشيخ الأكبر ناتجة عن مدى تأثيره في القلوب ومنزلته الروحية، هكذا يفضل هذا الرجل مسجد الأزهر لأن «وجود قلوبنا في بعض المواطن أكثر من بعض» وقد أحصى الباحث محمد المصباحي عدد المرات التي تم ذكر مدينة فاس فيها في الفتوحات المكية فوجدها تحتل المرتبة الثانية بعد مكة: «باستثناء مكة المكرمة التي يهدي كتاب الفتوحات لها باعتبارها أشرف وأقدس مكان في العالم والتي يتردد ذكرها أكثر من 129 مرة، حظيت مدينة فاس بمكان الصدارة في كتاب الفتوحات المكية إذ ورد ذكرها أكثر من 40 مرة، بينما لم يذكر قرطبة سوى 16 مرة، ونفس العدد بالنسبة لدمشق التي حط بها في نهاية رحلاته...».

نحن لا نريد أن نوضح مدى عشق ابن عربي لفاس واعتزازه بها، بل نسعى أن نثير انتباه أصحاب القلوب اللطيفة بما آل إليه مسجد الأزهر وربما سيتأثرون بهذا الخراب الذي لحقه، أو سيمارسون لعبة الاغماض أو النظر إلى الأمكنة التي تجتذبهم.

يقول ابن عربي عن تفاضل المساجد: «ولهذا يرجع تفاضل المسجد في وجود القلب، لا في تضاعف الأخر. فقد تجد قلبك في مسجد أكثر مما تجده في غيره من المساجد، وذلك ليس لتراب، ولكن لمجالسة الأتراب أو همهم. ومن لا يجد الفرق في وجود قلبه بين السوق والمساجد، فهو صاحب حال لا صاحب مقام». ولذلك وجد الشيخ قلبه في مسجد الأزهر ولم يجده في مسجد القرويين باعتباره مسجدا رسميا ممتلئا برجالات الدولة والمستبدين والطغاة. وبعبارة واحدة أنه كان بمثابة فضاء للنفاق الديني. في حين حافظ مسجد الأزهر على بساطته وعمقه الروحي الأمر الذي جعل محي الدين بن عربي يصبح إماما يصلي بمحبي هذا المسجد الجليل.

لعل التنبيه على سبيل السعادة، أو تحصيلها لن يتم إلا بزيارة هذا المسجد والتأمل في هذا الخراب الذي لحقه ما دام أن الصلاة لم تعد ممكنة فيه لأنه قد تحول إلى خراب جليل ينام في قلب الشيخ الأكبر الذي رأى فيه جميع رؤاه، وخاصة حين حصلت له تلك التجربة الروحية في مسجد الأزهر، وهي ما يمكن تسميته بمقام الوجهية حين تحول جسده إلى عين واحدة: «كنت أصلي بالناس بالمسجد الأزهر بمدينة فاس، فإذا دخلت المحراب أرجع بذاتي كأنها عين واحدة، فأرى من جميع جهاتي، كما أرى قبلتي. لا يخفى علي الداخل ولا الخارج، ولا أحد من الجماعة». ويضيف قائلا: «وهذا مقام نلته سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بمدينة فاس في صلاة العصر وأنا أصلي بجماعة بالمسجد الأزهر بجانب عين الخيل، فرأيته نورا يكاد يكون أكشف من الذي بين يدي. غير أني لما رأيته زال عني حكم الخلف، وما رأيت لي ظهرا ولا قفا، ولم أفرق في تلك الرؤية بين جهاتي، بل كنت مثل الأكرة لا اعقل لنفسي جهة إلا بالفرض لا بالوجود. وكان الأمر كما شاهدته، مع انه كان قد تقدم لي قبل ذلك كشف الأشياء في عرض حائط قبلتي. وهذا كشف لا يشبه هذا الكشف».

أقول لكم إن التاريخ سيحاكمنا على هذا الإهمال، لأن التراث الثقافي والحضاري ليس ملكا لأحد، بل إنه ذاكرة الأمة وإرث للأجيال اللاحقة. ولذلك لا ينبغي أن نتفرج على هذا الموت البطيء، أو بالأحرى هذا القتل الرحيم لكل إرادة ثقافية.

ربما أن محي الدين بن عربي حاضر ببركاته وقدسيته في هذا الخراب يتأمل ضعفنا وانعدام قدرتنا على الكلام والاحتجاج، خاصة وأننا تعلمنا منه كيف نقول نعم ولا، إما في وقت واحد أو في أوقات مختلفة، «من لم يتذوق متعة الحيرة ولذة التقلب لا قلب له، ومن لا قلب له لا يعول عليه» فهل أصبح الذين يسيرون هذا البلد دون قلوب، وهل ينبغي أن لا يعول عليهم؟.

والحال أن السياسيين الذين يقضون حياتهم في عقد اتفاقات والتخلي عنها قد تحولوا إلى كائنات خرافية، أو عبارة عن أشباح تبدو وسيمة في المساء من أجل الاطمئنان على المحاصيل وتسعى إلى تحقيق الأرباح وكأنها كائنات خالدة.

أيحق لنا أن نطلب منهم رفع هذه الأكياس البشعة من بهاء هذا المسجد الطاهر، أم ينبغي أن نتوجه إلى الشيخ الأكبر ونلتمس منه المعذرة ما دام أنه ليس باستطاعتنا أن نحقق له هذه الأمنية؟ ونقول له بصوت خافت يهمس في صمت الحيرة والتقلب، هنيئا لك بمغادرة فاس وإلا كان مصيرك هو العدم وتصبح مثل ابن باجة أو لسان الدين بن الخطيب دون قبر حتى يتمكن كل أكبري من زيارته وتذوق مقاماته وأحلامه ورؤاه. وقد قال ابن خلدون عن فاس وعن حكامها حين كان بصدد الحديث عن لسان الدين بن الخطيب قائلا: «وكان في ذلك انتهاء محنته، وعجب الناس من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان واعتدوها من هناته وعظم التكبير عليه وعلى قومه وأهل دولته».

لكن ماذا لو توجهنا بنداء إلى أصحاب القلوب اللطيفة لكي يتدخلوا ويضعوا حدا لهذه البشاعة الوديعة ويحركوا فينا ذلك الأمل النعيم؟ هل سننعم بالتفاتة جليلة؟.

لقد كان الشيخ الأكبر يحب فاس البرزخ التي قال عنها صاحب المعجب في أخبار المغرب عبد الواحد المراكشي: «وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس.....

ولذلك اختار ابن عربي أن يقضي فيها خمس سنوات من حياته كإمام لمسجد الأزهر بعمق الخليل ولذلك كان سعيدا بالتقائه بقطب الزمان فآخر الأولياء ومشاهدته احد أوتاد العالم الأربعة بفاس، فهل كانت غايته هي الدفاع عن المحبة والتسامح والفضيلة؟ أو ربما أنه كان يسعى إلى منح المغرب مشعل ومصباح ما بعد الحداثة؟

هكذا ينبغي على المغرب أن يفكر بعمق في خلق مصالحة مع هؤلاء العلماء، مع ذاته لأنه من البشاعة أن نترك هذا المسجد الجليل يتحول إلى مزبلة، وأن نترك ابن باجة دون قبر، وأن نترك لسان الدين بن الخطيب معتقلا في تلك الزنزانة وابن خلدون دون منزل وغيرهم...

أنت جالس أمامي أحدثك بشوق وأتذوق مقاماتك وأحوالك وأذكر تلك الرسالة التي بعثت بها إلى أبي الوليد بن رشد الذي كنت الوحيد الذي وصف موكب جنازته بعشق صوفي لا يمكن للإنسانية أن تنساه... هل بإمكانك أن تنام قليلا وحين تستيقظ ستجد هذا المسجد الذي تحبه قد بعث من جديد أو أنه التحق بالعدم نهائيا؟.

* كاتب من المغرب